

الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية من خلال علوم اللغة

Pictorial miraculousness in Quranic readings through language sciences

ط. د: أحمد عبد ربه¹، الدكتور: محمد لقريز²

Ahmed ABDERABBAH¹, Dr. Mohamed LOUKRIZ²

1 جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر-قسنطينة)، a.abdrabou@univ-emir.dz

مخبر البحث في الدراسات القرآنية والسنة النبوية

2 جامعة محمد بوضياف (الجزائر-المسيلة)، mohamed.loukriz@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2024/11/28

تاريخ القبول: 2023/12/18

تاريخ الاستلام: 2023/09/01

المخلص: يعد هذا البحث لبنة من لبنات الإعجاز البياني في القرآن الكريم من جهة القراءات القرآنية؛ كونه محاولة جادة لبيان معنى الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية من خلال علوم اللغة؛ بلاغة ونحو وصرف. كما تظهر أهمية هذا اللون من الإعجاز في التكامل المعرفي الجامع لشعث علوم اللغة والدراسات القرآنية وتأصيلها ونيل روافدها؛ فيستفيد اللغوي في درس اللغة ليحيي ذوقه ويظهر رونقه، والمفسر في القرآن الكريم ليستوعب معانيه ويستخرج درره، كما تهدف هذه الدراسة إلى الانتصار لرَبَّانية القراءات من خلال شاهد الإعجاز فيها وتآلف معانيها.

كلمات مفتاحية: الإعجاز البياني، التصوير، القراءات، علوم اللغة، القرآن الكريم.

Abstract: This research is considered one of the building blocks of the rhetorical miracle in the Holy Qur'an from the point of view of the Qur'anic readings. Being a serious attempt to explain the meaning of the pictorial miraculousness in the Quranic readings through the sciences of language; Rhetoric, syntax, and exchange. The importance of this kind of miraculousness also appears in the comprehensive cognitive integration of the linguistic sciences and Quranic studies, their rooting and the accession of their tributaries. The linguist benefits him in the language lesson to revive his taste and show his splendor, and the interpreter in the Holy Qur'an to comprehend its meanings and extract its pearls. This study also aims to triumph for the divine recitations by witnessing the miraculousness in them and the familiarity of their meanings.

Keywords: graphic miraculousness, imagery, readings, language sciences, the Holy Quran.

المؤلف المرسل: أحمد عبد ربه، الإيميل: a.abdrabou@univ-emir.dz

مقدمة:

- **تمهيد:** إن أشرف ما أنفقت في تحصيله الأوقات وأجل ما بذلت في دروبه الطاقات علم القرآن الكريم؛ لذا لا تجد عالما من علماء الأمة إلا واستفرغ جهدا في دراسته وبيان معانيه واستخراج درره وإدراك مراميهِ؛ كونه آية الله الخالدة الذي أعجز العرب على أن يأتوا بمثله في النظم والتركيب وجزالة الأسلوب والتأثير؛ إذ احتوى على جوامع الكلم وتفجرت من آياته ينابيع الحكم ففاق غيره من الكلام، وبه عرف الحلال من الحرام.

ولما كانت القراءات القرآنية علما من علومه وقرآنا منزلا وفق معهود العرب من كلامها وأساليب خطابها، متضمنة لتلك المعاني الجامعة، متألفة فيما بينها رغم المباني المتخالفة؛ دلت بذلك على أن الإعجاز من سماتها لما تصوره من معان بديعة منبثقة عن تلك الاختلافات في ألفاظها.

وإذا كان بيان مكامن ذلك الإعجاز التصويري في معاني هذه القراءات مقصدا من المقاصد السامية التي لا تتأتى إلا بوسائلها؛ باتت علوم اللغة مجالا خصبا للإفصاح عن تلك الصور من المعاني؛ حيث يتعانق علم القراءات وعلوم اللغة ليشكلتا تكاملا معرفيا جامعا لشعث علوم عدة من أجل إبراز هذا الإعجاز اللغوي الذي يعد شاهدا من شواهد الانتصار لربانية القرآن الكريم وقراءاته، وآية على صدق رسوله وخير برياته، ومنه جاء عنوان هذا البحث "الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية من خلال علوم اللغة".

- **الإشكالية:** ولتحقيق فكرة هذا البحث لا بد من الإجابة عن تساؤلات تفصح عن فحوى ذلك ومضمونه،

نلخصها في الآتي:

- ما معنى الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية وما نوعه؟
- وما فوائده التي ترجع على علوم اللغة والدراسات القرآنية بالنفع؟
- ما العلوم اللغوية التي تتوارد على تشكيل بنية هذا الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية؟
- **أهداف البحث:** يفصح هذا البحث عن جملة من الأهداف أهمها:
- تجلية مفهوم الإعجاز التصويري في معاني القراءات القرآنية وبيان نوعه وفوائده.
- إيضاح مدى التكامل المعرفي بين علم القراءات القرآنية وعلوم اللغة.
- الإفصاح عن جانب من جوانب الإعجاز البياني في القراءات القرآنية.
- **منهج الدراسة:** لتحرير هذا البحث اتبعنا المنهج العلمية الآتية:

- المنهج الاستقرائي: نتبعنا مواطن الاختلافات اللفظية بين القراءات التي يبني عليها هذا الإعجاز التصويري لمعانيها منسوبة كل قراءة منها لإمامها، كما استقرأنا معاني تلك القراءات من كتب توجيه القراءات القرآنية وتفسير الأئمة الذين كان لهم تناول لمادة القراءات وتوجيهها وإعجازها في تفاسيرهم.

- المنهج الوصفي: حيث تعرضنا لتلك المعاني المنبثقة عن القراءات بالوصف والتصوير كما تضمن ذلك تحليل تلك المعاني وخطبتها وشرحها.

كما أن الباحثين سلكا منهجا في تحرير هذا البحث تمثل في:

- وضع علامتا تنصيص "..." في كل قول ينقله نقلا مباشرا، أما إذا كان غير مباشر فينقل الفكرة بأسلوبه الخاص دون ذلك مع التهميش.

- إذا عثر الباحثان على سنة النشر الهجرية دون الميلادية فإنهما يضيفان حرف (هـ) ليتضح الفرق.

- وضعنا الآيات القرآنية من المصحف الإلكتروني برواية ورش من طريق الأزرق بخط واضح، واسم السورة ورقم الآية بين قوسين {اسم السورة: رقم الآية} بعدها.

- **خطة البحث:** قسمنا أفكار هذا الموضوع إلى مقدمة وأربع مطالب أساسية: **مقدمة:** فيها بيان عناصرها الأساسية، وأما **المبحث الأول:** مدخل مفاهيمي (شرحنا فيه مصطلحات البحث، وطبيعة الخلاف الوارد بين القراءات، كذا نوع الإعجاز التصويري لمعاني القراءات، وفوائده)، و**المبحث الثاني:** في الإعجاز التصويري في القراءات من خلال علم البلاغة، **المبحث الثالث:** في الإعجاز التصويري في القراءات من خلال علم النحو، و**المبحث الرابع:** في الإعجاز التصويري في القراءات من خلال علم الصرف، وأخيرا خاتمة وتوصيات: وفيهما أبرز النتائج المتوصل إليها والتوصيات المقترحة لآفاق العلمية مستقبلا.

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي للإعجاز التصويري في القراءات القرآنية

سنبين في هذا المدخل مفهوم الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية، ثم ننثي بطبيعة الخلاف الوارد بين تلك القراءات، كما نوضح نوع الإعجاز المنبثق عن معاني تلك القراءات ثم نختم هذا المدخل بذكر فوائد تصوير معاني القراءات التي ترجع على علوم اللغة والدراسات القرآنية بالنفع.

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية

إن المفاهيم التركيبية لا يظهر معناها حتى تتوضح جزئياتها؛ فبمعرفة الجزئيات يتوصل إلى معرفة الكل، ولما كان مفهوم الإعجاز التصويري للقراءات من قبيل المفاهيم المركبة؛ كان لزاما علينا بيان المفاهيم الإفرادية أولا، ثم ننثي بماهية المفهوم التركيبي لـ "الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية".

أولاً: مفهوم الإعجاز

1- لغة:

تدور التعاريف اللغوية للإعجاز على ثلاثة معان: عدم القدرة والضعف والانقطاع، وفيه معنى القصور (ابن فارس، 1979، صفحة 232)، وفي القرآن: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ {العنكبوت: 22}.

والمعاني جميعها متلازمة فعدم القدرة سببه الضعف والقصور اللذين يستلزم منهما الانقطاع عن المراد.

2- اصطلاحاً:

من التعريفات المشهورة عند أهل هذا الفن ما ذهب إليه السيوطي أن: "المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة" (السيوطي، 1974، صفحة 3)، وتفرع عن هذا القول لأهل العلم عدة مفاهيم للمصطلح مجملها يتفق على أن الإعجاز: هو أن يخرج الكلام ببلاغته عن قدرة البشر في معارضته على الإتيان بمثل ما تحداهم به (ابن خلدون، 2004، صفحة 204).

ثانياً: مفهوم التصوير

1- لغة:

يدور معنى التصوير في اللغة على معاني الإقبال والتفصيل والنقش، وهو ضربان مادي ومعنوي، "وصار وجهه يصوره ويصيره: أقبل به، والشئ قطع وفصله" (الفيروز آبادي، 2005، صفحة 761)، والصورة: ما ينتقش به الأعيان، ويتميز بها غيرها، وهو نوعان: أحدهما محسوس يدركه الخاصة والعامة، كصورة الإنسان والفرس، والحصار بالمعاني، والثاني: معقول يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل، والروية، والمعاني التي خص بها شيء بشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ {غافر: 64} (الأصفهاني، 1412هـ، صفحة 497).

2- اصطلاحاً:

من خلال المعاني اللغوية لمصطلح التصوير خلصنا إلى أن مفهومه: "عملية يمكن من خلالها إبراز تفاصيل الأشياء وحدها من جهة بيان صفاتها وأشكالها وأنواعها وهيئاتها المادية والمعنوية حتى يسهل لإدراكها".

ثانياً: مفهوم القراءات القرآنية

1- لغة:

القراءات جمع قراءة، من قرأ يقرأ قرآناً، ويدور معناها بين الجمع والضم لأمر واضح (ابن فارس، 1979، صفحة 79).

2- اصطلاحاً:

إن الناظر في مفاهيم القراءات عند أهل العلم يرى فحواها مرتكزة على بيان مفهوم القراءات من جهة اختلاف ألفاظها السماعية والأدائية فقط، وما ذهبوا إليه في الجملة لا يخرج عن مذهبين اثنين:

أ. المذهب الأول:

يعتبر أن القراءات واسعة المدلول، حيث تشمل الحديث عن ألفاظ القرآن المتفق عليها والمختلف فيها، ومن أصحاب هذا المذهب: ابن الجزري، وتابعه البنا الدمياطي وغيرهما من المتأخرين كالقاضي عبد الفتاح.

ب. المذهب الثاني:

ويرى أصحابه أن مفهوم القراءات مقصور على ألفاظ القرآن المختلف فيها فقط، وممن ذهب إلى هذا الزركشي في البرهان في علوم القرآن من المتقدمين، ومن المتأخرين الزرقاني في كتابه مناهل العرفان (الشدي، 2010، الصفحات 13-16).

وهذه المفاهيم المتأتية من جهة حفظ ألفاظ القراءات وبيان طرقها السماعية والأدائية لا تعيننا في هذه الدراسة؛ وإنما يعيننا بيان مفهوم معاني القراءات أو كما يصطلح عليه بـ "علم توجيه القراءات" وقد بينا مفهومه بقولنا: "فن يبحث في المعاني المنبثقة عن تنوع القراءات وإيضاح وجوها في اللغة وبيان تألفها وتصوير إعجازها" فقولنا: "تنوع القراءات" دون القراءات لأن علم التوجيه يختص بمواطن الاختلاف الوارد في ألفاظها دون المتوافق منها.

وقولنا: "وبيان تألفها" حتى لا يعتقد المتلقي أن هذا الاختلاف الوارد في القراءات اختلاف حقيقي.

وقولنا: "وتصوير إعجازها" لأن هذا التألف بين القراءات ينبثق عنه تصوير لمعانيها المبين عن إعجازها وهذا ما سنبينه في خضم هذا البحث كما سيأتي.

رابعاً: مفهوم الإعجاز التصويري لمعاني القراءات

بعد بياننا للألفاظ الإفرادية يمكننا القول أنَّ مفهوم الإعجاز التصويري لمعاني القراءات هو: "حكاية معاني القراءات القرآنية للأحوال المتنوعة والمقامات المختلفة من حيث الزمان والمكان والكم والكيف والذوات والهيئات في تدرج مرحلي بديع يقع في ذهن الناظر فيها، يدلنا على أنها من لدن حكيم خبير".

المطلب الثاني: طبيعة الخلاف الوارد بين القراءات القرآنية

جعل الله القرآن الكريم آيته الخالدة وحجته الباقية لما أودع فيه سبحانه من ائتلاف ألفاظه وتلاؤم معانيه، وإن من مظاهر هذا التلاؤم تلك القراءات القرآنية وإن كانت مختلفة في بعض ألفاظها إلا أنها مؤتلفة المعاني يقول ابن قتيبة متحدثاً عن هذا الاختلاف: "الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضاد؛ فاختلف التضاد لا يجوز، ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ، واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (يوسف: 45)، أي بعد حين، وبعد أمة أي بعد نسيان له، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان، لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان له، فأنزل الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، بالمعنيين جميعاً في غرضين" (ابن قتيبة، د ت، صفحة 33). كما ذكر الإمام ابن عاشور في المقدمة الثانية من تفسيره أن اختلاف القراءات على نوعين، أحدهما لفظي والآخر معنوي وهو الذي له تعلق بالتفسير وتكثير المعاني اللغوية فقال: "لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة" (ابن عاشور، 1984، صفحة 55).

المطلب الثالث: نوع الإعجاز المنبثق عن تصوير معاني القراءات القرآنية

لقد اختلفت مذاهب العلماء في إبراز وجوه الإعجاز القرآني وتعددت مناحيهم في ذلك، فظهرت تلك الوجوه اللغوية والتشريعية والعلمية والشمولية...، وإن كان ابن تيمية صوب جميعها بقوله: "بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة" (ابن تيمية، 1999، صفحة 428)، غير أن أجل تلك الوجوه وأحسنها على الإطلاق الإعجاز البياني اللغوي الذي مرده إلى اللغة ونظمها ومعهود العرب من كلامها وبيانها التي نزل القرآن به للأمر الآتية:

أولاً: يعتبر أول أنواع الإعجاز الذي تحدى الله عز وجل به المشركين الأول في بيان إعجاز القرآن الكريم إبان نزوله على الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه.

ثانياً: إضافة إلى أن هذا النوع من الإعجاز شامل لكل العصور؛ وذلك لاستيعابه عصر نزول القرآن ومجاراته لغيره من الأزمنة؛ إذ بات مرجع أهل العلم في بيان إعجاز القرآن الكريم وإثبات قداسته في كل عصر ومصر.

ولما كانت القراءات قرآنا نزل وفق معهود العرب من خطابها وأساليب كلامها؛ ننزع بيقين لا مرية فيه أن هذا الإعجاز الذي تولد عن تصوير معانيها لغوي؛ إذ لا يخفى على كل ناظر في إعجاز القراءات القرآنية وإيجازها وما تصوره من معان بيانية حياشة مع امتناع تضادها أو اختلافها اختلافا ينتج عنه تعارض أو تناقض حقيقي، يقول الطاهر بن عاشور: "وقد تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر تكثيرا للمعاني مع إيجاز اللفظ وهذا من وجوه الإعجاز" (ابن عاشور، 1984، صفحة 94).

وهذا الإيجاز في هذا الإعجاز هو من قبيل الإعجاز اللغوي، أو كما يعبر عنه بعض أهل العلم بالإعجاز البياني.

وأخيرا نقول: إذا كان القرآن معجزا بآياته؛ فكيف لا يكون معجزا إذا تعددت الآيات بتعدد معانيها؟؛ إذ جعل أهل العلم تعدد القراءات في الآية الواحدة ينزل منزلة تعدد الآي، يقول ابن الجزري: "كما أن في اختلاف القراءات نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز، وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز؛ إذ كل قراءة بمنزلة الآية؛ إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات" (ابن الجزري، د ت، صفحة 52).

المطلب الرابع: فوائد الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية

تنوعت الفوائد المنبثقة عن الإعجاز التصويري لمعاني القراءات القرآنية نوضحها كما يلي:

أولا: تعتبر المعاني المنبثقة عن اختلاف القراءات باختلاف ألفاظها تركة لغوية كبيرة تثري جانب الدراسات اللغوية، كما أنها شاهد لغوي قوي للتأصيل في الدراسات اللغوية من بلاغة ونحو وصرف...، إضافة إلى أنها جانب خصب لتطبيق هذه العلوم التي تقودنا للعيش وسط المعاني التي نزل بها القرآن لنتذوق من أفانين بيانه وسمو بلاغته وعذوبة أساليبه التي تبهر العقول وتسلي النفوس وتبعث الشوق إلى المعرفة فتزيد في إيمان العبد فيسلم حينها ويقر أن هذا القرآن وقراءاته من لدن حكيم خبير.

ثانيا: يخدم الإعجاز التصويري لمعاني القراءات الدرس التفسيري من ثلاث جهات:

1- تقليل الخلاف الوارد بين المفسرين في معاني القراءات:

وذلك أن الناظر في أسباب اختلاف المفسرين في المعاني التفسيرية من جهة القراءات يرى أن ذلك راجع إلى تفسير كل واحد منهم القرآن على قراءة معينة، فيذهب إلى المعاني التي انبثقت عن تلك القراءة دون ما سواها، أو أنه قد يتناول قراءتين أو أكثر لكن عند اختلاف هاته القراءات يسلك مسلك الترجيح لا الجمع فيرد بعض القراءات الثابتة؛ وقد وقع في هذا كبار المفسرين كالإمام الطبري، ولكن يعتذر لهم بأن القراءات في زمنهم مازال لم يستقر علمها من جهة التنظير بعد؛ فلو ذهب هؤلاء جميعا إلى الجمع بين القراءات وتدبر تصويرها للمعاني لقضوا

على تلك الخلافات وجاءت تفاسيرهم متلائمة زيادة على إبرازهم جانباً إعجازياً سمحاً من وجوه الإعجاز البياني في القراءات القرآنية.

2- تفسير القراءات المتواترة للقرآن أصل من أصول التفسير:

يدخل ضمن تفسير القرآن للقرآن غفل عنه كثير من أهل العلم فضيعوا جانباً ثرياً من المعاني التي من خلالها نستفيد أحكاماً واستنباطات وفوائد وملحاً تفسيرية تزيد من القيمة العلمية لتلك المؤلفات.

3- تفسير القراءات الشاذة للقرآن أصل من أصول التفسير:

ينزل منزلة تفسير القرآن بالسنة؛ لأن القراءات في هذا الباب جاءت من طرق الأحاد وهو جانب مهم في الدرس التفسيري؛ حتى إن الأصوليين وضعوا لها باباً في كتبهم لعلمهم بأثر القراءات الشاذة في تحديد المعاني وبيان الأحكام.

ثالثاً: إثراء الجانب التشريعي في القرآن الكريم من جهة تصوير القراءات القرآنية للمعاني (الصفاقسي، 2004، صفحة 15)؛ وذلك ببيان الأحكام التشريعية حيث تقلّب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات فيه زيادة في المعنى، وفيه دلالة على الأحكام التي يستنبطها الفقه مثل قراءة (يَطْهَرْنَ وَيَطْهَرْنَ)؛ حيث بينت القراءة الأولى أن قربان الزوجة يكون بطهارتها ونقائها من دم الحيض، أما قراءة التضعيف المنبثق عن إدغام الناء في الطاء ففيها شرط آخر ومعنى زائد ومرحلة ثانية بعد انقطاع الدم ألا وهو الاغتسال.

رابعاً: يعتبر الإعجاز التصويري المنبثق من تعدد معاني القراءات ووجوهها معلماً من معالم الانتصار للقرآن الكريم وقراءاته، وحجة واضحة على أنها من لدن حكيم عليم؛ فأنت ترى هذا الاختلاف وهذه المعاني المنكاثرة ليس بينها ما يوهم التناقض أو الاضطراب بل تشكل تصويراً معنوياً في تشكيل بلاغي بديع، فسبحان من أنزله، وأكرمه وأنعمه.

خامساً: إن هذا الإعجاز التصويري الوارد في معاني القراءات المبين عن تألفها وعدم اختلافها يظهر لنا طبيعة الخلاف الذي جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم في القراءات؛ وأنه خلاف ألفاظ وتلاوة لا خلاف معان وتناقض، حيث كان سببه عدم علم بعضهم بطرق تحمل البعض الآخر، أو اختلاف مجالسهم التي كان يقرؤهم فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ويشهد لهذا الآثار الواردة في اختلاف قراءاتهم رضوان الله عليهم زمن النبي صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يذهبون إليه فيصوب الجميع.

المبحث الثاني: الإعجاز التصويري في القراءات القرآنية من خلال علم البلاغة

سنذكر في هذا المبحث أمثلة في الإعجاز التصويري لمعاني القراءات المنبثقة عن الوجوه البلاغية.

المطلب الأول: قوله تعالى ﴿أَوَكَلَّيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

{البقرة: 259}

يذكر الله سبحانه لنا دليلاً بيناً على توحده بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء حينما يقص علينا خبر رجل من بني إسرائيل مر على قرية خاوية على عروشها موحشة، حيث وقف متعجباً مستبعداً كيف يحيي الله هذه؟! بين الله له طريقة إحيائه العظام بعد هلاكها؛ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ثم قال له سبحانه: ﴿أَوَكَلَّيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ {البقرة: 259}.

اختلف القراء في لفظة "ننشزها" فقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: "ننشزها"، وقرأ الباقون بالزاي "ننشزها" (ابن الجزري، د ت، صفحة 231).

أولاً: قراءة ننشزها فمعناها إحياء الله العظام وتسويتها بعد البلى على سبيل الإجمال (الرازي، 1420هـ، صفحة 36).

ثانياً: غير أن هذا الإجمال تفصله وتصور مراحله القراءة الثانية: "ننشزها" ومعنى النشز في اللغة كما قال الراغب الأصفهاني: الارتفاع بعد الاتضاع (الأصفهاني، 1412هـ، صفحة 806)، أي: "كيف نشخصها ونرفعها ونزجها حتى ينضم بعضها إلى بعض، مأخوذ من النشز وهو ما ارتفع من الأرض، ومنه قيل نشزت المرأة على زوجها أي نبت عنه" (الزجاجي، 1987، صفحة 79) وارتفعت، وبين ابن عطية أن هذا الارتفاع يكون على هيئة مخصوصة وتدرج مستمر يقول رحمه الله: "وإنما النشور الارتفاع قليلاً قليلاً" (ابن عطية، 1422هـ، صفحة 298)، وقد فسره النحاس بقوله: "معناه ننبتها... أي نحركها أو نرفع بعضها إلى بعض للتركيب" (النحاس، 1409هـ، صفحة 281)، وأضاف ابن عاشور مرحلة أخرى تعقب ارتفاع العظام فيها تصوير حسي وهو ما يتلو ارتفاعها من التغيرات الطارئة حين تغلظ العظام بإحاطة العصب واللحم والدم بها (ابن عاشور، 1984، صفحة 36)، كما استنبط

عبد الفتاح القاضي معنى آخر من هذين القراءتين وهو أن الله لما ضرب لهذا الرجل المثل في الإحياء والإماتة بين تعالى أنه إذا أراد بعث الخلائق يوم القيامة ضم عظامهم بعضها إلى بعض حتى تجتمع، ثم يحييها للجزاء (القاضي، 2014، صفحة 419).

انظر إلى هذا القرآن الذي لا تتقضي عجائبه، كيف لفظة واحدة؛ بل حرف واحد من كلمة صور لنا مراحل متتالية وفصل لنا عملية الإحياء التي تمت بقدرة الله سبحانه وتعالى، فما أجملته القراءة الأولى فصلته القراءة الثانية في لفظة بيانية بديعة أبانت على جانب من الإيجاز البلاغي الذي هو من خصيصة الإعجاز القرآني الفريد.

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: 50).

نزلت هذه الآية في بيان موقف يهود المدينة من حكم الرسول صلى الله عليه وسلم لما جاءوه يبغيون حكم شريعتهم المحرفة في رجل وامرأة زنيا حينما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تجدون في التوراة فأخفوا آية الرجم، ففضحهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه (البخاري، 1422هـ، صفحة 206).

اختلف القراء في "يغيون" فقرأ ابن عامر الشامي بالتاء وقرأ الباقر بالباء (ابن الجزري، د ت، صفحة 254).
أولاً: جاءت قراءة تبغون بالخطاب على أسلوب الالتفات من علوم البلاغة؛ لأن الآية قبلها جاءت على أسلوب الغيبة، ثم عدل بالكلام فانتقل من الغيبة إلى أسلوب الخطاب، والمخاطب ها هنا اليهود، وهم أهل علم وفهم بما عندهم، فحسن لومهم وتقريعهم بهذه الصورة بما أنكر الله عنهم في صدهم عن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم (المقدس، د ت، صفحة 95).

إن قراءة "تبغون": أحدثت هزة شديدة في قلوب اليهود كأنه يقول لهم: أنتم أهل كتاب تريدون حكم الجاهلية؟ وتتاسب هذه الصورة من الخطاب المقام أنه لما كان اليهود في المدينة وحكموا رسول الله في أمرهم كان الخطاب لهم حضورياً كأنهم يسمعون إلى زجرهم وردعهم، مشعراً بقربهم من الجماعة؛ فلما دخلوا تحت لوائهم في الإقامة والسكنى؛ كذلك ينبغي لهم أن يدخلوا تحت لوائهم في الحكم والشرعة؛ فصور لهم حالتهم.

ثانياً: أما قراءة "يغيون": يريدون حكم التوراة ظناً منهم أنهم مستقلون بما عندهم ولا تجري عليهم أحكام الإسلام؛ كأن خطاب الغيبة حكم غيابي يتضمن احتقاراً لهم وزجراً على ما بيتوا في أنفسهم من المكر والخداع وادعاء الاستقلالية في الحكم.

ولا يسعنا إلا أن نقول: انظر كيف بينت لنا القراءتان ملابسات الحادثة في أحوال مختلفة وصورتها تصويرا بديعا حسب هيات الخطاب وفق أسلوب الالتفات الذي هو سيد البلاغة في انسجام الكلام، ورايط درر قلائده في نظام.

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَأْسَئِعٌ وَلَا أَتَاخَذُ بِحُكْمِ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ {الأنعام: 57}.

هذه الآية من سورة الأنعام التي نزلت بادئ الإسلام، تقص علينا من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قومه للتوحيد والإسلام ومعارضتهم له بجملة من المطالب الساخرة والتي منها أن يطلب الرسول ربه سبحانه وتعالى استعجالهم بالعذاب؛ فبين الله من أمرهم فيما يأتي من تصوير القراءات في هذه الآية.

وقد اختلف القراء في كلمة "يقص الحق" فقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وابن عامر "يقضي الحق" وقرأ الباقون "يقص الحق" (ابن الجزري، د ت، صفحة 258).

أولاً: قراءة "يقضي" من القضاء، بمعنى الحكم والفصل، واعتبروا صحة ذلك بقوله: ((وهو خير الفاصلين)) {الأنعام: 57}، وأن الفصل بين المختلفين إنما يناسب القضاء (الطبري، 2000، صفحة 399)، واتخاذ الأحكام، وبه يحصل التناسب بين صدر الآية وخاتمتها؛ أي أنكم استعجلتم أمراً قد قضاه الله وأنتم به مكذبون فهو نافذ لا محالة

ثانياً: وأما القراءة الأخرى "يقص" أي أن الله قص عليكم من خبر الأمم السالفة فلم تعتبروا بما أخبركم، كما أن تعنتكم وفعلتكم هذه قصها الله لعباده بعدكم عبرة لهم حتى يتعظوا بكم مصداقاً لقول القائل: "السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه".

انظر كيف ناسب الخطاب ترتيب المعاني المتلائمة والأحوال المختلفة والأزمنة المتعاقبة؛ فاستعجال العذاب لم يكن بدعاً من الأمم بل أثر في الأمم قبل هذه الأمة لذا حذر الله من نزل فيهم القرآن أن قص عليهم بما قضى به على من قبلهم، كما أن الله قضى بما حكم عليهم به في زمنهم وفصل؛ ليصبح قصصاً لمن يأتي بعدهم عسى أن يعتبروا؛ فما قضاه سبحانه في قوم قصه على من بعدهم ليكون هذا القرآن عبرة على مر العصور والدهور، وهذا على سبيل التناسب للملائمة بين المعاني من الكلام في مطلعته وتمامه، وهو فن بلاغي بديع في القرآن الكريم (ابن قيم الجوزية، د ت، صفحة 87).

وهاك درة أدبية بليغة متعلقة بفن المناسبة ونسق نظم القرآن للإمام الرافعي إذ يقول: "وقد استوفى القرآن أحسن ما في ذلك اللغات من ذلك المعنى، وبان منها بهذه المناسبة العجيبة التي أظهرته على تنوعه في الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد وهي مناسبة معجزة في نفسها؛ لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلفة عليها كما اتفق القرآن، أمر لا يقول بإمكانه من يعرف معنى الإمكان"(الرافعي، 1974، صفحة 44).

أقول والمناسبة الأبهى من هذا في الإعجاز عندما يجتمع هذا التناسب في القرآن بين قراءاته قَبْلَ معانيها المتألفة.

المبحث الثالث: الإعجاز التصويري لمعاني القراءات من جهة النحو

سنذكر في هذا المبحث أمثلة في الإعجاز التصويري لمعاني القراءات المنبثقة عن الوجوه النحوية.

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝﴾ {الحج: 23}.

تظهر هذه الآية صورا من نعيم الجنان، وتفضل الرحمان جل جلاله، وما أعده فيها من حسنى للمؤمنين، حيث يحلون بالأساور واللؤلؤ ويوشحون بالحرير.

وقد اختلف القراء في كلمة "لؤلؤا" فقرأ نافع وعاصم بالنصب "لؤلؤا" وقرأ الباقر بالجر "لؤلؤا" (ابن الجزري، د ت، صفحة 327).

أولا: قراءة الجر تحمل على أن يكون ذلك فيما خلط خلطا من الصنْفَيْنِ الذهب واللؤلؤ (ابن زنجلة، 1997، صفحة 474)؛ فيرصد سوار الذهب باللؤلؤ ويمزج به.

ثانيا: أما قراءة النصب فتكون الواو للمعاقبة أو الجمع فتارة يلبسون ذهباً وتارة يلبسون لؤلؤا وتارة يخلطون بينهما فيشمل الجميع من جهة الكم والكيف (السامرائي، 2003، صفحة 339)؛ وهو مناسب لنعيم الجنة الكثير الذي لا ينفد كما بين القراء أن أساور جاءت مسبقة بمن لأن الأساورَ لَيْسَ بِمَعْلُومٍ عَدَدُهَا (القراء، د ت، صفحة 140)، وهذا يدلنا على كثرة نعيم الجنة وتنوعه وتجده فكل مرة يظهر على أهلها صنف من الحلية والزينة خلاف ما ظهروا به من قبل؛ ويدل على هذا الفعل المضارع المتجدد "يحلّون" (ابن عاشور، 1984، صفحة 233)، ولا شك أن النفس مجبولة على التنويع والتغيير والاكتشاف حتى في الجنة؛ ولا أدل على ذلك من غواية الشيطان لأبينا آدم عندما أراد أن يعرف مذاق الشجرة التي بسببها أنزل إلى الأرض.

وهذا كما ترى صور متنوعة من التصوير البديع لمعاني القراءات كان سببه اختلاف وجوه الإعراب الذي به يفهم الخطاب.

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: 19).

نقص علينا الآية الكريمة من خبر قبيلة سبأ المعروفة التي كانت تسكن "مأرب" في اليمن الصعيد، حيث أنعم الله عليهم فيه بطيب العيش ورغده، ونسيم الهواء وحسنه، ولما علم سبحانه حاجتهم إلى السفر بين اليمن والشام لكسبهم العيش هياً لهم من الأسباب ما سهل لهم الطريق وطوى لهم بعده وأحاطهم بالأمن؛ فكانوا يبيتون بقرية ويقولون بأخرى ذات مياه وأشجار فلا يحتاجون إلى حمل زاد من سبأ إلى الشام، فبطروا النعمة، وسئمو الراحة وطغوا ولم يصبروا على العافية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: 19).

اختلف القراء في: ((ربنا باعد)) فقرأ يعقوب "ربنا باعد" بالإخبار عن الماضي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام "ربنا بعد" بالتضعيف، وقرأ الباقر "ربنا باعد" على سبيل الدعاء (ابن الجزي، د ت، صفحة 350). ومعنى هذه القراءات أنه لما ذكرتهم الرسل بنعم الله تعالى عليهم، أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة، فسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم، وقيل: إنهم تمنوا فقالوا لو كانت جناتنا أبعد مما هي، كان أجدر أن يشتهي جناها فاستبعدوا أسفارهم بطرا منهم وأشرا، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: 19) -على سبيل الدعاء- وألحوا في الدعاء وزادوا حتى قالوا: "ربنا بعد"؛ فاستجاب الله دعاءهم (الثعلبي، 2002، صفحة 85)، عندها قالوا: "ربنا باعد" حكاية للماضي وإخبارا للناس بما أنزله الله عز وجل بهم، وشكاية إليه سبحانه بما حل بهم (ابن الجوزي، 1422، صفحة 496)، وفي هذا المعنى ونحوه مما افترن بكفرهم ظلموا أنفسهم ففرقهم الله تعالى وخرب بلادهم وجعلهم أحاديث، ومنه جاء المثل السائر "تفرقوا أيادي سبأ" (ابن عطية، 1422هـ، صفحة 415).

انظر إلى المتعلقات النحوية في هذه القراءات كيف صورت لنا هذه المعاني البديعة لحال قبيلة سبأ التي كانت تتقلب في نعم الله، ليدعوا الله عز وجل أن يباعد بين أسفارهم، ثم يلحوا في الدعاء ويؤكدوا؛ فلما فرقهم في البلاد وجعلهم مثلاً للعباد أخبروا الناس بفعلتهم وندموا على ما فعلوا فشكوا حالهم لله سبحانه.

المطلب الثالث: سورة المسد.

تقص لنا سورة المسد من خبر أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم وامراته أم جميل اللذين كانا شديدي الأذية للنبي صل الله عليه وسلم -قبحهما الله- فأُنزل الله فيهما هذه السورة قرآنا يتلى إلى يوم الدين.

اختلف القراء في كلمة "حمالة" من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ {المسد:4}.

فقرأ عاصم "حمالة" بالنصب، وقرأ الباقر "حمالة" بالرفع (ابن الجزري، د ت، صفحة 404).

أولاً: قراءة النصب فيها شتم لها جريا على أسلوب الذم، لأن الأصل في الذم أن يخالف في الإعراب فلا يجري كله على موصوفه؛ إذ أن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع وضروب من البيان، وعند الاتحاد يكون وجها واحدا (الرازي، 1420هـ، صفحة 219)، وذكر الطبري معنى آخر فقال: "وقد يحتمل أن يكون نصبها على القطع من المرأة، لأن المرأة معرفة" (الطبري، 2000، صفحة 678)، فلشهرتها واستفاضة أمرها بحمل الحطب استغنى عن ذكرها.

وقال بعض أهل العلم: "واستشكل بعضهم الحالية من أن المراد به المضي، فيتعرف بالإضافة، فكيف يكون حالا عند الجمهور؟ ثم أجاب بأن المراد الاستقبال لأنه ورد في التفسير: أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب النار، كما كانت تحمل الحطب في الدنيا" (الحلي، د ت، صفحة 144).

ثانياً: أما قراءة الرفع ففيها ثبوت الذم على أسلوب التقرير فأصبح تماديها في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بحمل الحطب ووضعها في طريقهم اسما ولقبا ملازما لها، ومنه جاز في حالة الرفع أن يكون عطف بيان (ابن حيان، 1420هـ، صفحة 567).

ويظهر التصوير الإعجازي للقراءات في هذه السورة ذم الله عز وجل لأبي لهب وامراته التي كانت تحمل الحطب مرارا وتكرارا لتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم حتى أصبح ذلك لقبا لها في الدنيا وسيكون ضربا من ضروب العذاب المسلط عليها يوم القيامة كما ذكر الطبري، فكما كان هذا الوصف ثابتا لها في الدنيا فسيكون عذابا ثابتا لها يوم القيامة كذلك.

المبحث الرابع: الإعجاز التصويري لمعاني القراءات من جهة الصرف

سنذكر في هذا المبحث أمثلة في الإعجاز التصويري لمعاني القراءات المنبثقة عن الوجوه الصرفية.

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ١١٩﴾ **{البقرة: 119}.**

تبين لنا الآية تثبيت الله للرسول صلى الله عليه وسلم بما جاء به من الهدى ودين الحق المخالف لأديان أهل الكتاب الباطلة التي قصها عليه؛ جامعا له في ذلك بين الترغيب بالبشارة والترهيب بالندارة، نافيا لمسائلته في قوله "ولا تُسأل".

وقد اختلف القراء في هذه اللفظة على قسمين؛ فقرأ نافع "ولا تُسأل" بفتح التاء وجزم اللام، وقرأ الجمهور "ولا تُسأل" بضم التاء واللام (ابن الجزري، د ت، صفحة 221).

أولا: ومعنى قراءة الرفع المسندة لما لم يسم فاعله أنك يا محمد غير مسؤول عن ذنوب الكافرين في خطاب جمع له فيه التهذئة من روعه مع إضفاء السكينة عليه، قال الخازن: "إنا أرسلناك بالحق لتبلغ ما أرسلت به، وإنما عليك البلاغ ولست مسؤولا عما كفر عن أصحاب الجحيم" (الخازن، 1415هـ، صفحة 74)، وهي معنى قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا بِهَا وَإِنْ تُضِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّا الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ١١٨﴾ {الشورى: 48}.**

ثانيا: ومعنى القراءة الثانية بالنهي "ولا تُسأل" ففيها معنى الوعيد على الكافرين: قال الزجاج: "أرسلناك غير سائل عن أصحاب الجحيم" (الزجاج، 1988، صفحة 200)، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣﴾ **{التوبة: 113}**؛ لأن السؤال عن حالهم والاستغفار لهم يقتضي الشفاعة فيهم، والنهي عنه تعظيم للعقوبة والتحقير لهم، والبعد من رحمة الله سبحانه، وهذان القراءتان تصوّران لنا مشهدين مختلفين غير متناقضين:

الأول: طمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم والتهذئة من روعه، وفيه معنى آخر وهو أنه بلغ الدعوة وليس عليهم حفيظ؛ فلا يُسأل عما أعرض وتولى صلى الله عليه وسلم **والثاني:** أن المعرضين عما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم مثلهم لا يسأل عن حالهم فهم في ضنك وعذاب، وتهديد وعقاب.

والناظر في هذه المعاني يرى أن القراءتين جمعت بين الرضى واللوم والأمن والفرع والاهتمام والتحقير، فسبحان من أنزل كتابه بجوامع الكلم، وصرح آيه بينابيع الحكم.

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: 105).

تعددت صور المطاعن التي جاء بها المشركون على القرآن الكريم، وتتوعد مشاهدتها لما جاءهم الرسول الكريم نذيرا لهم وبشير؛ وهذه الآية مشهد من تلك المشاهد يحمل في طياته صورا متعددة انبثقت من قراءات لكلمة "درست" موردها التصريف.

اختلف القراء في لفظة "درست" فقرأ نافع وعاصم وحزمة والكسائي "درست"، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "دارست"، وقرأ ابن عامر الشامي "درست" (ابن الجزري، د ت، صفحة 161).

أولا: فقراءة "درست" مسندة إلى الآيات بمعنى عفت وخلقت كما قال (ابن فارس، 1979، صفحة 267): أي بليت وامحت فهي قديمة، ويشهد لهذا ما جاء من جدال الكفار وسخريتهم من النبي صلى الله عليه وسلم قبل هذه الآية في نفس السورة قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: 25).

ثانيا: أما قراءة "دارست"، فهي من المفاعلة بمعنى قرأت وقرئ عليك، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: 4).

ثالثا: أما قراءة "درست" وهذا حكاية لفعل التعلم الذي جاء من المشاركة والمفاعلة القديمة وهذه مرحلة تلي ما اتهموه فيه في قراءة "دارست"؛ فلكانها رسخت على حد زعمهم وأصبحت علما تعلمه.

والقراءات الثلاثة فيهن نوع من الاتهام وحكاية موقف قريش من الوحي جاء على صور زمانية وأحوال مختلفة؛ فالأولى قولهم أن أصل العلم أساطير قديمة قد بليت، ثم إن تعلمها أعانك عليه قوم آخرون وشاركوك علمها، ثم حكاية هذه المشاركة التي أصبحت من الماضي على أنك درستها وتعلمتها.

كما تظهر هذه الوجوه جميعها حال أولئك المشركين وتخبطهم في أقوالهم وعدم ثباتهم فيما يقولون، بل قولهم تخرص مبني على الشك والارتباك مصداقا لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (ق: 5).

ومما سبق نقول: انظر إلى فن الصرف كيف كان موردا في تعددت معاني هاته القراءات فأصبحت كأنها بمنزلة ثلاث آيات لكل واحدة منها معنى وتصوير بياني بديع ينبئ عن رفعة هذا القرآن وكمال إعجازه.

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ {يونس: 30}.

تصور لنا هذه الآية مشهداً عظيماً من مشاهد الآخرة، حين يتحسر المشركون حسرة لم يتحسروا مثلها قبل ولا بعد بما أسلفوا من رديء الخصال، ويفرح المؤمنون بما قدموا من صالح الأعمال. اختلف القراء في لفظة "تبلوا"، فقرأ حمزة والكسائي "تتلو"، وقرأ الباقر "تبلو" (ابن الجزري، د ت، صفحة 283).

وهذان القراءتان كل قراءة منهما لها معان حسب التقلبات الصرفية لكل لفظة؛ فصلها فيما يلي:

أولاً: قراءة: "تتلو"؛ ولها معنيان حسب تصرفها

وأول معانيها: تتلو من التلاوة المعروفة والمعنى: تقرأ كل نفس ما عملت من عمل محصى في كتابها ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ {الإسراء: 14}.

وثاني معانيها تتبع "من التلو" وهو المتابعة، أي تتبع كل نفس ما قدمته من عمل فيسوقها إلى الجنة أو إلى النار" (ابن عاشور، 1984، صفحة 153).

ثانياً: قراءة: "تبلوا"؛ ولها ثلاث معان حسب صرفها

وأول معانيها تعلم أورده القرطبي عن الكلبي (القرطبي، 1964، صفحة 334)، ومعناها الثاني أنها تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل على حقيقته (الشوكاني، 1414هـ، صفحة 500)؛ لتختبر حالته وثمرته ولتعرف ما هو حسن ونافع وما هو قبيح وضار؛ إذ قد وضع لهم ما يفضي إلى النعيم بصاحبه، وضده (ابن عاشور، 1984، صفحة 153)، ومعنى ثالث ذكره القرطبي: وهو تسلم؛ أي تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها (القرطبي، 1964، صفحة 334).

ويظهر الإعجاز التصويري في هذه القراءات عند وصفها مشاهد الحساب يوم القيامة، وتتجسد صورة ذلك أن كل نفس تقرأ صحائف أعمالها فتعلم ما فيها من خير وشر؛ وتمعن النظر فيها حتى تكاد تخلق وتتقادم لتختبر موقعها من الجنة أو النار؛ فتتبعها حتى تدخلها، وبعدها تذوق جزاها في دار الخلد والقرار؛ فتسلم بغير اختيارها لقضاء الواحد القهار.

خاتمة وتوصيات:

بعد إتمامنا تحرير هذا البحث توصلنا إلى جملة من النتائج والتوصيات أهمها:

النتائج: تمثلت النتائج في:

أولاً: الإعجاز التصويري لمعاني القراءات القرآنية معلم مهم من معالم الإعجاز القرآني البياني اللغوي، أبان عن منارات عالية من التكامل المعرفي بين علوم اللغة والقرآن الكريم وقراءاته وما ينبثق عن ذلك من علوم؛ حيث ألّف بين مجموعها وجمع شعثها ونظم عقدها.

ثانياً: أبان الإعجاز التصويري لمعاني القراءات القرآنية عن مجموعة من الفوائد في الدرس التفسيري؛ إذ تضمن تناوله صوراً من تفسير القرآن بالقرآن، كما تدخل القراءة الشاذة المتوصل إليها بطرق الأحاد ضمن تفسير القرآن بالسنة، وهو جانب يثري التفاسير بالمعاني اللغوية والملح التفسيرية التي يستفيد منها اللغوي ومتعاطي التفسير معا.

ثالثاً: يعتبر الإعجاز التصويري لمعاني القراءات طريقاً مشوقاً لكسب الروافد اللغوية من نحو وصرف وبلاغة، كما أنها مسلك لرد دخیل اللغة إذ تعتبر حجة في الاستدلال، إضافة إلى أنها أصل في إبراز معاني البيان القرآني؛ حيث يجمع السالك فيه بين أصالة اللغة في رجوعه إلى مضان اللغة القديمة وبين التشويق في تتبعه تصوير المعاني القرآنية وبين ترسيخ المعلومة لأن المعلومة اللغوية المستقاة من القرآن الكريم وقراءاته فيها بركة من بركة هذا القرآن قل ما تنسى.

رابعاً: يعتبر الإعجاز التصويري شاهداً من شواهد ربانية القرآن الكريم وقراءاته، ومعلماً من معالم الانتصار للقرآن الكريم حيث يطمئن قلب المؤمن ويسلم، وبه تدحض شبهات الطاعنين في القرآن الكريم وقراءاته وبيان غلط من إدعى التناقض والاضطراب فيهما.

التوصيات: أبانت لنا هذه الورقة البحثية عند معالجتها عن مجموعة من الآفاق منها:

أولاً: تعتبر القراءات القرآنية شاهداً لغوياً وتفسيرياً قوياً؛ لذا نوصي الباحثين أن يتناولوا هذا الموضوع من جهتين:

1- التأسيس للموارد اللغوية والتدليل لها من هذه القراءات كونها نزلت على معهود الأميين من الخطاب تحت

عنوان "القراءات شاهداً لغوياً".

2- بيان المعاني التفسيرية المنبثقة من هذه القراءات وفق مجالات الشريعة المختلفة؛ عقيدة، تفسير، فقه،

أخلاق ورفائق... تحت عنوان "القراءات وأثرها في علوم الشريعة الأخرى"

ثانياً: رأينا أن العلامة الطاهر بن عاشور -عليه رحمة الله- أبدع في تناوله معاني القراءات وتصويرها، إضافة إلى أن المقدمة التاسعة من تفسيره أفردتها للكلام عن القراءات ومعانيها؛ لذا نوصي الباحثين بتناول جانب الإعجاز التصويري لمعاني القراءات ضمن تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، كما يمكن تطبيق هذا اللون من الإعجاز على غيره من التفسيرات.

ثالثاً: تعددت الموارد اللغوية التي تناولها أهل العلم في بيان منارات الإعجاز التصويري للقراءات القرآنية؛ ومنه نوصي الباحثين أن يتتبعوا تلك الموارد ليتناولوها بالتطبيق ويرصدونها حتى تكون مرجعاً مهماً في بابها يجمع بين التكامل اللغوي والقراءات القرآنية، تقسم حسب الموارد اللغوية من نحو وصرف، بلاغة وشعر ... أو المجالات الشرعية من عقيدة وفقه، رقائق، قصص ...

قائمة المراجع:

-القرآن الكريم

1. إبراهيم الزجاج. (1988). معاني القرآن وإعرابه. بيروت: عالم الكتب.
2. أحمد ابن تيمية. (1999). الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. السعودية: دار العاصمة.
3. أحمد ابن فارس. (1979). مقاييس اللغة. مصر: دار الفكر.
4. أحمد النحاس. (1409هـ). معاني القرآن. مكة المكرمة: جامعة أم القرى.
5. أحمد بن محمد الثعلبي. (2002). الكشف والبيان = تفسير الثعلبي. لبنان: دار الكتب العلمية.
6. الراغب الأصفهاني. (1412هـ). المفردات في غريب القرآن. دمشق - بيروت: دار القلم، الدار الشامية.
7. السمين الحلبي. (د ت). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. دمشق: دار القلم.
8. الطاهر ابن عاشور. (1984). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية.
9. جلال الدين السيوطي. (1974). الإتيقان في علوم القرآن. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10. جمال الدين ابن الجوزي. (1422). زاد المسير في علم التفسير. بيروت: دار الكتاب العربي.
11. شهاب الدين عبد الرحمان المقدسي. (د ت). إبراز المعاني من حزر الأمان. د م: دار الكتب العلمية.
12. عادل بن علي الشدي. (2010). ضوابط وآثار استعانة المفسر بالقراءات. الرياض: مدار الوطن للنشر.
13. عبد الحق ابن عطية. (1422هـ). المحرر الوجيز. بيروت: دار الكتب العلمية.
14. عبد الرحمان ابن خلدون. (2004). المقدمة. دمشق: دار يعرب.
15. عبد الرحمان ابن زحلة. (1997). حجة القراءات. بيروت: مؤسسة الرسالة.
16. عبد الرحمان الزجاجي. (1987). الأمالي. بيروت: دار الجيل.

17. عبد الفتاح القاضي. (2014). الأعمال الكاملة. د م: معهد الإمام الشاطبي.
18. عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. (د ت). تأويل مشكل القرآن. بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية.
19. علاء الدين علي الخازن. (1415هـ). لباب التأويل في معاني التنزيل. بيروت: دار الكتب العلمية.
20. علي بن محمد الصفاقسي. (2004). غيث النفع في القراءات السبع. بيروت: دار الكتب العلمية.
21. فاضل السامرائي. (2003). لمسات بيانية في نصوص التنزيل. عمان: دار عمار للنشر والتوزيع.
22. فخر الدين الرازي. (1420هـ). مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
23. مجد الدين الفيروز آبادي. (2005). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
24. محمد بن يوسف ابن حيان. (1420هـ). البحر المحيط. بيروت: دار الفكر.
25. محمد البخاري. (1422هـ). صحيح البخاري. د م: دار طوق النجاة.
26. محمد القرطبي. (1964). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية.
27. محمد بن أبو بكر ابن قيم الجوزية. (د ت). الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. بيروت: دار الكتب العلمية.
28. محمد بن جرير الطبري. (2000). جامع البيان في تأويل آي القرآن. د م: مؤسسة الرسالة.
29. محمد بن محمد ابن الجزري. (د ت). النشر في القراءات العشر. بيروت: دار الكتب العلمية.
30. محمد علي الشوكاني. (1414هـ). فتح القدير. دمشق: دار ابن كثير.
31. مصطفى صادق الرافعي. (1974). تاريخ آداب العرب. بيروت: دار الكتاب العربي.
32. يحيى بن زياد الفراء. (د ت). معاني القرآن. مصر: دار المصرية للتأليف والترجمة.